طلعت حرب بين الإعجاب وعلامات التعجب

مع أن طلعت حرب واحد من المصريين البارزين الذين سطّروا دورهم بأحرف من عرق وجهد استحق معها وبها كل هذا الإعجاب ، واستحق أكثر من ذلك لكونه ينتمي لطبقة اجتماعية بسيطة أثبتت من خلاله أنها قادرة علي أن تفرز كوادر تفرض دورها وتنتزع الإعجاب بها فكراً وتطبيقاً ، وأنها قادرة كذلك علي الإسهام في حل الكثير من قضايا المجتمع التي قد تستعصي علي أغلب القادرين ، إلا أن التأخر في إحياء ذكري هذا الرجل العظيم والتنويه بأعماله حتى يمر ست وستون عاما فيدرك الجميع دوره ، ويسعى الجميع بشكل مكثف إلي تعويض هذا التأخير فهذا أمر يثير التساؤل والعجب .

فبعد طول سنين من الاحتفاء بمن أريد لهم أن يكونوا نجوماً ممن تصنعهم أو تصطنعهم ظروف كل عصر ، وبرغم أن طلعت حرب تأبي أعماله أن تجعله يتوارى عن عين وذهن كل مصري أو منصف من خلال بنك مصر ببنائه الشامخ وشركاته المتعددة والشارع الذي أصبح باسمه بعد أن كان باسم قائد فرنسي لجيش محمد علي وهو سليمان باشا ، وتمثال في أحد ميادين مصر الأرستقراطية وهو ابن الطبقة البسيطة ، إلا أن طلعت حرب ظل متوارياً عن أذهان حتى الكثير من المثقفين هذه السنين الطويلة حتى نزل الإلهام فجأة فاهتم الجميع بذكراه ، ولم يقطع هذه الوحشة لسيرة الرجل سوى ما كتبه الأستاذ طارق البشري عنه في دار الهلال ، والزعيم

الوطني فتحي رضوان إبن محافظة الشرقية مثله الذي شاركه في أفكاره لفترة محدودة هو والزعيم أحمد حسين والزعيم إبراهيم شكري حين أسسوا مشروع القرش في الثلاثينات من القرن الماضي ثم اندرجوا كلية في الميدان السياسي ، وكاتب أجنبي هو أريك أفيز ، ورابع هو رشاد كامل الذي اعتبر طلعت حرب ضميرا لوطنه مصر .

ولا شك أن تفسير اهتمام وسائل الإعلام مؤخراً من إذاعة وتليفزيون ومراكز بحث وصحف بطلعت حرب وهو أمر يستحقه ما تمليه المرحلة الحالية في تاريخ مصر من ظروف التحول الرأسمالي وعجز الدولة عن حل الكثير من مشكلات ترتبت علي هذا التحول من الفقر والبطالة وغير ذلك ، فطرح نموذج كطلعت حرب أمام الكثير من رجال الأعمال الذين ينتمون في أغلبهم إلي الجذور الاجتماعية البسيطة التي خرج منها طلعت حرب قد يشكل دافعاً إيجابياً لدفع بعضهم للعب دور مماثل يسهم في حل مشكلات مصر . كما يفتح هذا النموذج الذي قدمه طلعت حرب الطموح لكثير من أبناء الطبقة الفقيرة ليخوضوا تجربة العمل الاقتصادي بعيداً عن الاندراج أو الاندحار في دوائر ووظائف الدولة فيريحوا أنفسهم ويريحوا غيرهم .

فالجذور الاجتماعية التي ينتمي إليها طلعت حرب سواء في بيئة والده في ريف الشرقية أو في موطن ولادته في حي شعبي هو حي الجمالية في القاهرة كانت دافعاً لنشاطه الاقتصادي بعيداً عن دور الدولة الأمر الذي يفسر اهتمام أغلب المنتمين إلي البورجوازية المصرية وهم أصحاب رؤوس الأموال به كنموذج .

كما أن هذه الجذور الاجتماعية هي التي حددت توجه طلعت حرب الفكري ونشاطه السياسي ، فعلي الرغم من تخرجه من كلية الحقوق ١٨٨٩ م إلا أنه كان قريباً من تيار الحزب الوطني الذي تزعمه مصطفي كامل والذي كان يدعو للارتباط بالدول العثمانية كرمز للخلافة الإسلامية وهو اتجاه السواد الأعظم لشعب مصر . واتخاذه موقفاً مخالفاً لموقف العلمانيين ممن يسمون بدعاة التنوير من أمثال أحمد لطفي السيد وقاسم أمين وسعد زغلول ، فعارض قاسم أمين في الدعوة لتحرير المرأة بشكل مطلق وفجائي ، وأصدر في هذا الصدد كتاباً بعنوان " : فصل الخطاب في المرأة والحجاب " ، ولعل ذلك من أسباب التأخر أو الإهمال في إحياء ذكراه .

ولعبت الجذور الاجتماعية دورها في اهتمام طلعت حرب بالبعد الأخلاقي فبعد إنشائه بنك مصر ١٩٢٠ م أصدر قراراً بعدم تمويل البنك لأية مشروعات تسئ إلي الخلق العام وكرامة الإنسان . لكنه مع ذلك كان أكثر استنارة من الكوادر التي تجمد فكرها عند حدود معينة حول فهم القيم الأخلاقية ، فأنشأ شركة للتمثيل والسينما (استوديو مصر) ووظفها في الإعلان عن المنتجات المصرية لشركات البنك ، وأرسل العديد من البعثات في مجال الإخراج والتصوير والديكور والمكياج وغيرها ، كما فتح المجال لعمل المرأة في العديد من المنشآت الاقتصادية .

والقضية الأهم في حياة هذا المصري العظيم أنه تلقي تعليمه في البداية في التعليم الشعبي أو الأهلي الذي لم يكن ينال أي قدر من الاهتمام بعد أن صادر محمد علي مصدر الإنفاق عليه وهو الأوقاف ، فبدأ تعليمه في الكتّاب حيث تعلم القرآن الكريم ومبادئ اللغة العربية ، ولم يتعلم في

مدارس أجنبية أو مدارس خاصة ، ثم واصل تعليمه في مدرسة التوفيقية ثم كلية الحقوق بعد أن اظهر تفوقاً علي أبناء هذه المدارس مؤكداً أن الحرية التي كان ينعم بها التعليم الأهلي الفقير كانت كفيلة بأن توجد مبدعين يفوقون أبناء التعليم المحاصر بالنظام الهادف إلي تخريج حرفيين في نهاية المطاف حتى ولو علت درجاتهم وتزينت ألقابهم من الطب والهندسة والصيدلة وغيرها.

ومن العلامات البارزة التي تستوجب الانتباه والإعجاب في حياة هذا المصري النموذج أنه اقترب لفترة زمنية بكل من الزعيم الوطني محمد فريد والأمير عمر طوسون بشكل كان له إسهامه في توجهه ، فقد أدرك من خلال علاقته بمحمد فريد الذي ضحي بكل ما يملك في سبيل الدفاع عن القضية الوطنية أن العمل من أجل الوطن يفرض أن يكون غاية نبيلة يعيش الإنسان لها لا أن يعيش بها ، وأن هذه الغاية تستوجب التضحية من أجلها والترفع عن اتباع سياسة نفعية وتحقيق مكاسب ذاتية .

وتعلم من الأمير عمر طوسون أن السياسة عمل وإنشاء وإنتاج وليست مجرد هتافات ومظاهرات ، وأن الطريق إلي استقلال الوطن يكون عبر دخان المصانع أولا قبل فوهات المدافع ، وقد علّق البعض علي إدراك طلعت حرب وتطبيقه لهذا المعني بالمثل الشعبي ": إذا أردت أن يكون قرارك من راسك فلابد أن يكون رغيفك من فاسك " . ولهذا انصبت جهود طلعت حرب الاقتصادية علي الطبقة الفقيرة التي ينتمي إليها ، وبدأ تطبيق ذلك بنفسه قبل إنشائه لبنك مصر حين أنشأ محلاً للبقالة بمشاركة أحد أبناء طبقته وهو فؤاد الحجازي .

وهناك محطة أخرى في حياة ونشاط طلعت حرب يجب الوقوف عندها تتمثل في تزامن نجاح فكرته في إنشاء بنك مصر ١٩٢٠ م أي في أعقاب ثورة شعب مصر ١٩١٩ م والتي تركزت علي تحقيق قدر من العدل الاجتماعي إلي جانب أو من أجل إخراج المحتل الإنجليزي . وحين حوصرت أهداف هذه الثورة في الميدان السياسي وركّز السياسيون علي مسألة خروج المحتل وأغفلت الجانب الاجتماعي والاقتصادي وقامت جماعات شيوعية وأخري إسلامية لتنادي بهذا البعد جاءت مشروعات طلعت حرب ، التي حظيت بتأييد هذه التيارات وكذلك بتأييد كبار الملاك والرأسماليين ، لتقدم نموذجاً تطبيقياً لتحقيق قدر من العدل الاجتماعي في وقت انزوت فيه أغلب نداءات أصحاب هذه الأيديولوجيات في الإطار النظري .

بقي أن نشير إلي جانب هام في حياة هذا الرجل المصري وهو تأليفه لكتاب " تاريخ دول العرب والإسلام " الذي استعرض فيه فترة تاريخية انتهت بعصر الخلفاء الراشدين ، لكن الأبرز في ذلك هو تركيز الرجل علي جانب هام وهو أن الوعي بالتاريخ وكتابته يعد من أبرز ملامح النهوض بالأمم والشعوب .

رحم الله طلعت حرب ، ورحم الله كل من يسعى لإبرازه كنموذج مصري ينافس نجوم الاستهلاك والهلاك ، وأكثر الله من أمثاله في زماننا وفي كل زمان .